فقه السيرة في التربية الأخلاقية

إعداد /الدكتور الهادي المبروك سالم
قسم الدراسات الإسلامية /كلية الآداب

المقدمـــة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للناس أجمعين القائل فيه خالق الكون أجمعين: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ القلم 4.وقال صلى الله عليه وسلم : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) [1]، وقال عليه السلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [2].

فالأخلاق صفة عظيمة أوصى بها رب السماء وبعث بها الرسل والأنبياء، ربط بها الدين وجعلها من أولى مهام المرسلين، قال تعالى في محكم التنزيل ﴿**وما خَلَقْتُ الجنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ**﴾الذاريات 56.فمن تمام العبادة حسن الخلق، قال صلى الله عليه وسلم: (حسنوا أخلاقكم)[3] ويبين لنا بالقول والعمل كيف يكون حسن الخلق، بداية من علاقة الإنسان بذاته، والانتباه إلى أقواله وأفعاله، وعلاقته بالأهل والجيران والمحيط الذي يعيش فيه ، ووصولا إلى تعامله مع المجتمع الدولي بأسره.

لقد كان هديه واضحا جليا يستوجب الوقوف عند كل حرف أو كلمة قالها، وفهمها الفهم الصحيح، ثم توظيفها لتكون منهاج حياة وأثراً يقتفى لتنال الأمة ما تصبو إليه من خير عظيم. فالمسلمون الأوائل التزموا بتعاليم الدين،وامتشقوا التوحيد سلاحا، ومكارم الأخلاق وشاحا،فدانت لهم العرب والعجم

1 السيوطي ، الجامع الصغير، 310
2 الهيثمي، مجمع الزوائد ، 9/ 18
3 السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 332/6.

من مشارق الأرض إلى مغاربها. هزموا أعتى الجيوش، ودكوا أقوى الحصون، بهروا العالم بحسن معاملتهم وسموّ أخلاقهم ورفعتها، كانوا على صهوات جيادهم يجوبون العالم لإعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، متحصنين بالأخلاق الإسلامية. إذا دعاهم داعي الجهاد فلا يقتلون طفلا، ولا شيخا كبيرا، ولا يتعرضون لامرأة لا تحمل السلاح، لا يهدمون بيوتا، ولا يحرقون زروعا، لا يمنعهم من ذلك إلا علو أخلاقهم التي أمرهم بها دينهم الحنيف، وحتى الأسرى الذين يقعون في أيديهم تدفعهم حسن معاملة المسلمين لهم إلى الدخول في دين الله، وخير شاهد ودليل لما نقول: عندما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا منتصرا أرسل أبا سفيان بعدما أعلن إسلامه يخبر قومه: أن (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه باب داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن) هذا الموقف الأخلاقي الرفيع حقن به النبي صلى الله عليه وسلم الدماء وفتح باب الدخول في الإسلام على مصراعيه، فدخل الناس في دين الله أفواجا قال تعالى ﴿**إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** (1) **وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً** (2) **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**﴾.سورة النصر

فنحن اليوم والحال التي نعيشها؛ ذل وهوان وضعف حال، انتشار للجريمة، وإهمال في تربية الأبناء، وترك الغريب عن مجتمعنا ينشر ثقافته الهدامة بين أبناء مجتمعنا الإسلامي، دون رقيب ولا حسيب، حري بنا أن نرجع إلى منابع ديننا الحنيف ، وأن نتتبع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا لمجرد الاطلاع والعلم؛ بل من أجل التفقه في سيرته والعمل على تطبيقها على أكمل صورة وأجملها.

ويهدف هذا البحث إلى:

1. تعريف الأخلاق.
2. بيان الأخلاق الفطرية والمكتسبة.

3. أهمية الأخلاق في الإسلام.
4. الغاية من الأخلاق.
5. خصائص الأخلاق الإسلامية.
6. هدي النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته في الأخلاق.

المبحث الأول : تعريف الأخلاق:

الخلق في اللغة : الخلق بسكون اللام وضمها السجية، وفلانا يتخلق بغير خلقه يتكلفه[1]. أما تعريفه في الاصطلاح فهو الصورة الباطنة للإنسان ، والتي يمكن أن تظهر للآخرين بأشكال مختلفة على جوارحه الظاهرة للناس ، وعرف ابن المبارك الخلق فقال: هو طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى[2].

ويعرف الغزالي الخلق بقوله (فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا)[3]، من هذا نفهم أن الأخلاق الفاضلة هي التي تحقق في الإنسان معاني الإنسانية الرفيعة ، وتحيطه بهالة وضَاءة من الجمال والكمال، وشرف النفس والضمير، كما تمسخه الأخلاق الذميمة وتحط من قدره بين الناس ، بل وتجعله في مرتبة الأنعام.

المبحث الثاني : الأخلاق فطرية ومكتسبة:

أخلاق الإنسان منها ما هو فطري يولد معه وفق فطرته التي فطره الله عليها ، ومنها ما هو مكتسب يتلقفه الإنسان من البيئة التي يعيش فيها والمحيط الذي

1ينظر مختار الصحاح، مادة (خلق)
2 المكتبة الشاملة،6/1
3 أبى حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين،(ط2؛ دار الفجر: القاهرة، 2010) 72/3

يتربى فيه، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم توضح لنا معنى الفطرة في الأخلاق ، قال صلى الله عليه وسلم: (أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء ، ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ؛ منهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ، ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالأرض الأرض ، ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا ، فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء ، وسريع الغضب سريع الفيء فإنها بها ، ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء ، حسن الطلب ، وشر التجار من كان سيء القضاء ، سيء الطلب ، فإذا كان الرجل حسن القضاء، سيء الطلب ، أو كان سيء القضاء حسن الطلب ، فإنها بها ، ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة ، لا يمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه ، ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه)[1] يدلنا هذا الحديث على أن الناس حالهم حال المعادن المدفونة في الأرض منها النفيس الغالي ومنها الذي لا قيمة له في السوق، كما يبين لنا أن سعادة الإنسان وشقاءه في الدنيا والآخرة مربوط بما يقدمه لنفسه وما يزرعه من أفعال وأقوال يجني ثماره يوم القيامة، والناس تصف صاحب الخلق الحسن بطيب المعدن، وصاحب الخلق السيئ بأنه لا معدن له.ويبين لنا نبينا الكريم الفطرة

1 السيوطي، الجامع الصغير 1610.

البشرية بقوله صلى الله عليه وسلم:(النَّاسُ معادِنُ كمعادنِ الفضَّةِ والذَّهبِ . خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فقِهوا . والأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ . فما تعارف منها ائْتَلف . وما تناكَر منها اخْتَلف)[1]،هذا الحديث فيه بيان لمعادن البشر فمنهم المعدن الطاهر النقي الذي لا يجلب لأهله ودينه إلا الخير والصلاح، ومنهم المعدن الرخيصالذي لا سعر له في سوق البشرية، فالإنسان والفطرة التي جبل عليها. وما أكدته التجارب التربوية تبين أنه قابل للتعديل والتشكل وفق النظام التربوي الذي يلقاه، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية بعثه المولى سبحانه وتعالى لهذه المهمة التربوية العظيمة ألا وهي تقويم أخلاق البشرية، والمتتبع لأقواله وأفعاله يجد فيها الخير الكثير، فهو مدرسة أخلاقية تمشي على الأرض ، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) نستخلص من هذا الحديث أن الإنسان على الرغم من ميلاده على الفطرة السليمة ألا وهي توحيد المولى سبحانه وتعالى فإنه يحتاج إلى بيئة صالحة تتعهده وترعاه فإذا ترك وشأنه ستتلقفه الأيدي الآثمة وتوجهه النفوس الشريرة لما يخدم مصالحها، ومن هذا نأخذ وجوب رعاية الأبناء والمحافظة عليهم وتشريبهم تعاليم الدين الحنيف ومبادئه السامية، وكذلك وجوب الالتفات إلى البيئة التي يعيش فيها أبناء الأمة الإسلامية وتطهيرها من كل ما يكدر صفوها ، والنبي صلى الله عليه وسلم ترك لنا معينا لا ينضب كتاب الله وسنة نبيه الكريم من تمسك بهما فاز بالدارين، والقرآن الكريم يبين لنا أن غرس تعاليم الدين في نفوس الأهل يحتاج إلى صبر وتحمل، قال تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ [طه: 132] . نستقي من هذه الآية الكريمة أن السلوك قابل للتعديل ، ويقول المولى سبحانه

1صحيح مسلم، 2638.

وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾سورة الذاريات: 55. فالقرآن الكريم شواهده كثيرة في مجال تربية النفوس وتعديل الأخلاق، والدين الإسلامي جعل مهمة التربية وتحسين الأخلاق مهمة اجتماعية مشتركة بداية من المحيط الأسري وانتهاء بالمحيط البشري العام بدون حدود ولا تقسيمات سياسية. فالمسلم أينما وجد وأينما حل واجب عليه أن يعمل من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين في كل بقعة من بقاع العالم، وأن يسعى لتكون أخلاق بني دينه في رفعة وسمو دائمين لأنها من تمام التدين.

المبحث الثالث : أهمية الأخلاق في الإسلام:

لقد اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماما بالغا وذلك لأهميتها في حياة البشرية وترابطهم الاجتماعي، وما يستوجب من تواصل بينهم تستدعيه متطلبات الحياة العامة، وقد شرع المولى سبحانه وتعالى من الأحكام ما يمكن المجتمع البشري من التعايش في أمن وسلام ، فقد حرم التعدي على الآخر في ماله وعرضه ونفسه، فما وجدت أحكام القصاص والديات، ووجوب إقامة الحدود وما يتبع ذلك من أحكام إلا من أجل رعاية المصلحة العامة للبشرية والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بسمو الأخلاق ، فما نهى الشارع الحكيم عن خلق إلا وفيه مفسدة ، وما أمر باتباع خلق إلا وفيه مصلحة، ومما يدل على أهمية الأخلاق في الدين أن المولى سبحانه وتعالى جعلها صفة لمن بعثه للبشرية جمعاء ، يقول الحق تبارك وتعالى واصفا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم:﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ القلم:4ونظرا لهذه الصفة العظيمة التي وصفه الله بها أمر العباد بأن يتخذوه قدوة يقتدون بها قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾الأحزاب 21. ويبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم مهمته التي بعثه الله بها بقوله:(إنما

بعثتلأتمم مكارم الأخلاق)[1] رواه البخاري في الأدب المفرد برقم 273..

لقد جعل الإسلام العقيدة الأساس الأول الذي تصدر عنه الأخلاق الفاضلة، وارتباط الأخلاق بالعقيدة أمر معلوم لكل من له فكر وروية بأمور الإسلام، وهذا الارتباط يشكل ضمانة لثبات الأخلاق واستقرارها وعدم العبث بها، كما يعتبر في الوقت نفسه شجرة مثمرة طيبة لهذه العقيدة ،وعلى قدر ارتباط الأخلاق بالعقيدة فإنها مرتبطة بالشريعة بما تحويه من عبادات ومعاملات لا تنفك عنها، وإذا لم تتصف عبادة المسلم أو معاملته بالجانب الأخلاقي فهي مبتورة ولا يقبلها المولى سبحانه وتعالى، فالمسلم مطالب بالاتصاف بكل ما هو حسن من الأخلاق: الصدق والأمانة والعدل والحياء والعفة وما إلى ذلك من هذه المكارم، ومطالب بالابتعاد عن أضداد هذه الصفات.فالأخلاق لها أهميتها بالنسبة للفرد والجماعة على حد سواء، يقول تعالى:﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾الشمس: 9- 10[، ويقول سبحانه:﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ الأعلى: 14- 15[،فقد ربط المولى سبحانه وتعالى النجاح والفلاح بتزكية النفس، وهو تهذيبها ظاهرا وباطنا، وصلاح أخلاق الفرد له انعكاساته الإيجابية على المجتمع ، فالأخلاق هي الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية إسلامية كانت أم غير إسلامية، يقرر ذلك قوله تعالى : ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾العصر: (1- 3).

فالعمل الصالح المدعم بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والتحديات من شأنه أن يبني مجتمعًا محصنًا لا تنال منه عوامل التردي والانحطاط. والله سبحانه وتعالى يوجهنا في محكم التنزيل إلى مكارم الأخلاق ويحذرنا من سيئها، ويأمرنا بالبعد عتها، قال الله تعالى﴿ :**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**

1المتقي الهندي، كنز العمال،ج3/ 5217

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾الأعراف:199 وقال سبحانه﴿ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾الحجرات: 6. وقال سبحانه﴿ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾الحجرات: 11- 12.

مما سبق نخلص إلى أن رفعة الأخلاق وسموها تعد في الإسلام عبادة ينال بها العبد رضاء الخالق، قال الله تعالى﴿ :وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾البقرة: 195. وقال تعالى: ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران:146وقال سبحانه﴿:إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾المائدة: 42 وهي سبب لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم:عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي يومَ القيامةِ أحاسنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم مني أساوئُكم أخلاقًا الثَّرثارونَ المتشدِّقونَ المتفيهقون)[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين، لا يؤذيهم، فأدخل الجنة. والنصوص في حسن الخلق كثيرة منها :أنها دليل كمال الدين، وأنها أثقل شيء في الميزان، وأنها عبادة يبلغ بها العبد درجات الصائم القائم، وأن صاحب الخلق من خيار الناس .وأنها من خير أعمال الإنسان .

1 ابن حجر، تخريج مشكاة المصابيح، 368/4.

وأنها سبب تأييد الله ونصره.

المبحث الرابع: خصائص الأخلاق الإسلامية

بما أن الأخلاق الإسلامية نابعة من تعاليم هذا الدين السماوي وصادرة عن الذي لاينطق عن الهوى فإن لها من الخصائص ما يميزها عما سواها من الأخلاق البشرية ويمكن تلخيص بعض من هذه الخصائص وفق الآتي:

1_التوازن بين مطالب الروح والجسد

فالمولى سبحانه وتعالى ركب المخلوق البشري من روح وجسد وألف بينهم بالاعتدال والتوازن في المطلب ، وسن له من القوانين ما يضبط هذه العلاقة، فمن حق الإنسان أن يشبع رغباته وشهواته الجسدية شريطة أن تكون وفق الضوابط الشرعية، وجعل له من العبادة والطاعة ما يشبع رغباته الروحية، قال تعالى ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾الأعراف 32 .

2_الأخلاق الإسلامية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

لقد رفع الله الحرج على المسلمين وربط أداء العبادة وكل ما أمروا به من طاعات بالوسع والمقدرة وذلك وفق ما تمليه عليهم الحياة وهذا الوسع جعل التكاليف الإسلامية صالحة للتطبيق في كل وقت وفي كل زمان يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ البقرة 286. وقال تعالى : ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ الحج 78 .وقال تعالى:﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ التغابن 16. لقد استنبط الفقهاء من هذه الآيات قواعد فقهية عظيمة ، مثل قاعدة: المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات.

3_ **ربط الجزاء والحساب على الأفعال بالنيات والمقاصد :** وقد أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة متينة بقوله : (إنما الأعمال بالنيات)[1]، فالحديث الشريف يبين لنا أهمية النية فمدار كل أعمال العبد على النية وليس مجرد الفعل فقط وبالتالي لم ينتفع المنافقون والكفار بأعمالهم.

4_ **اتفاق التشريع مع مصلحة العباد:**

ما أمر المولى سبحانه وتعالى بأمر أو نهى عن فعل إلا وفيه جلب مصحلة للعباد ودفع مضرة عنهم ، فلم يحرم الله الخمر إلا للمفسدة التي توقعها في أخلاق الناس، وبالمثل تحريم الزنا والتعامل بالربا، والله سبحانه وتعالى قد بين لنا هذه المضار في محكم التنزيل ، قال تعالى: .﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾ المائدة 90 ، وقال تعالى .﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾.

5_ **الأخلاق الإسلامية تتوافق ومقاصد الشريعة الإسلامية:**

كل المبادئ السامية التي ينادي بها الإسلام تعد من مكارم الأخلاق وتتمثل فيها مقاصد الشريعة من حفظ للنفس والمال والعرض والدين.

المبحث الخامس: الغاية من الأخلاق

عندما يستمع المسلم لأمر الله ويبذل قدر جهده لتطبيق هذا الأمر إنما غايته من هذا التطبيق أن ينال رضا الله ، ويتقي غضبه وعذابه، فقد وعد الله عباده المتقين المتصفين بحسن الخلق بخير الجزاء يوم اللقاء، وتوعد المخالفين لأمره المرتكبين للفواحش بالعذاب الأليم، وإلى جانب سعي الإنسان المسلم لمرضاة الله فإنه يسعى للراحة النفسية وذلك بأن يجنب نفسه وأهله هوى الشيطان، وفي هذا شعور

1 صحيح مسلم،كتاب الإمارة، باب قول صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات (3/1515) رقم (155).

بالراحة النفسية صادر عن طاعة الله والابتعاد عن الأخلاق التي لا يقبلها ذو عقل سليم ، ومن الغايات التي يسعى الإنسان للحصول عليها من خلال التمسك بالأخلاق الكريمة : كبح هوى النفس وإلزامها بالأوامر الشرعية.

ويعبر الأستاذ عفيف عبدالفتاح طبارة عن الغاية من الأخلاق بقوله" ولا شك أن الأخلاق هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم ، ولهذا نرى الباحثين والفلاسفة قد اتفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع في جملته، فكما أن الفرد يضيره ويفسد أعماله أن يكون كاذبا مرائيا حسودا شريرا ماكرا، كذلك تفسد المجتمعات بشيوع هذه الصفات فيها"[1] ويبين الدكتور عمر التومي الشيباني الغاية من الأخلاق بقوله:" الدين الإسلامي أو الأخلاق الإسلامية لا تقتصر غايتها على تحقيق السعادة الأخروية المتمثلة في الفوز برضا الله ورحمته.....ألخ بل تتعدى تلك الغاية هذه السعادة الأخروية المحضة إلى تحقيق السعادة الدنيوية المشروعة التي توصل إلى السعادة الأخروية"[2].

وبهذه الغايات النبيلة تغنى الشعراء بأشعارهم:

قال الحسين بن مطير الأسدي:

أحب مكارم الأخلاق جَهدي وأكره أن أَعيبَ وأن أُعاب
وأصفح عن سِباب الناس حِلما وشر الناس من يهوى السِبابَ

المبحث السادس: هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق

تعد حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مدرسة مفتوحة لكل من أراد أن يعيش في الدنيا سعيدا ويلقى ربه وهو عنه راض، وواجب على كل المسلمين الالتحاق بهذه المدرسة والارتواء من نبعها وتنسم عبق أريجها، والمداومة على ارتيادها

1 عفيف عبدالفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي (ط30؛ دار العلم للملايين: بيروت) ص276.
2 عمر التومي الشيباني، فلسفة التربية الإسلامية، (ط2؛ الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس: ليبيا) ص244.

ما دامت تجري في العروق دماء ، وما دمنا نعيش في هذه الدنيا فأكرم به من نبع وأكرم بها من سيرة.

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي في مقدمة كتابه "فقه السيرة" "محمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن، ولا التنويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد تضم إلى ألفاظ الأذان، ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ، ويتأوهون أو لا يتأوهون! فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير في الإبانة على تعلقهم بنبيهم إلا يوم أن تركوا اللباب المليء وأعياهم حمله، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال"[1].

أليس من الواجب على كل مسلم أن يترك المظاهر والقشور وأن ينتقل من مجرد قارئ لسيرة النبي الكريم إلى مطبق لها في حياته اليومية في بيته مع أفراد أسرته ، وبين أهله ومن ثم جعلها تنعكس على معاملاته مع مجتمعه المحلي والمجتمع الخارجي، إذا نحن سارعنا في التطبيق سنجني الثمار الزكية ونكون مجتمعا إسلاميا سعيدا قوامه أفراد وأسر مؤمنين بدينهم الحنيف ومتبعين لقدوتهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكما يقول المثل مسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة تتبعها خطوات، والحكمة تقول:

إبدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت فأنت حكيم

وما سنقدمه من نماذج من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العجالة آملين أن نستقي بعضا من أخلاقيات النبوة الكريمة.

1 محمد الغزالي، فقه السيرة، دار لشروق، ص6_7.

أ/ هديه في مخاطبة الأمراء والملوك

لقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم وهو المأمور بالتبليغ على مكاتبة رؤساء الدول وملوكها وأمرائها يدعوهم إلى اتباع الإسلام ونبذ ما عداه من الأديان، فقد روى مسلم عن أنس أن رسول الله كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي.

ونظرا لهذه المهمة الصعبة ألا وهي إيصال الرسائل إلى هؤلاء الجبابرة فإن من ينتخب لها لابد وأن يتميز بقوة الإيمان والشجاعة لمواجهة خطر الانتقام والموت، لهذا فقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي ليكون رسوله إلى قيصر عظيم الروم، فعن ابن حبان أن رسول الله قال: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقال رجل : وإن لم يقبل؟ قال: وإن لم يقبل! فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم، فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس قربى إلى الله.

نص الكتاب: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين_الفلاحين_ و﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾آل عمران64.

حاول قيصر أن يوهم دحية الكلبي بأنه مسلم وأعطاه قدراً من الدنانير وصرفه، عاد دحية إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالنبأ فقال رسول الله: "كذب عدو الله ليس بمسلم" وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين [1].

1 البخاري 21/132، ومسلم 165/5_166.

الدروس الأخلاقية المستفادة من هذه الحادثة:

1_ فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم وخبرته بالنفس البشرية وما جبلت عليه من حب التعظيم كيف لا وهو من أعطي جوامع الكلم ، ويسير وفق أمر الله سبحانه وتعالى :﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ النحل 125 .فقد خاطب هرقل بقوله له (عظيم الروم) ليشعره بمكانته عند قومه وعلو شأنه بينهم.

2_ ربط الأمان بالإسلام "سلام على من اتبع الهدى" ليشعر المخاطب بأنه لا أمان له إلا باتباع طريق الحق.

3_ عرض الدين بصفة الترغيب والترهيب: _أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فقد بين له أن قبوله للإسلام في خير كثير.

4_ إشعار المخاطب بالمسؤولية الملقاة على عاتقه كحاكم _ فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين_ الفلاحين_ . فمن تمام الأخلاق أن يراعي الحاكم مصلحة من يسوسهم وأن يدرس عواقب تصرفاته وما تجلبه لرعيته من خير أو شر فكل ذلك معلق في رقبته يحاسب به يوم القيامة .

5_بيان المصلحة التي سيجنيها المدعو إلى كلمة التوحيد ألا وهي الخروج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ففي الأولى انحطاط وذل ومهانة ، وفي الثانية رفعة وعزة وكرامة.

6_ يرشدنا خطاب النبي إلى الملوك والأمراء إلى أهمية الحوار مع الآخر بالكلمة الطيبة الصادقة والابتعاد عن أسلوب العنف والصدام المسلح الذي نراه اليوم يقع بين الإخوة والأشقاء قبل الأعداء.

7_وضوح الأهداف وبيان الشروط أثناء الحوار ، فكلما كانت الأهداف واضحة كان الوصول إليها أقرب وأسرع.

8_ سر نجاح دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يسعى لمصلحة شخصية ، ملك أو جاه أو مال ، بل كانت دعوته تنحصر في توحيد الله وإفراده بالعبادة على هذه الأرض.

ويدعوننا المقام أن ننتقل إلى درس آخر من أخلاقيات النبي صلى الله عليه وسلم وذلك يوم فتح مكة عندما دخلها فاتحا منتصرا بجيش جرار بعدما خرج منها في جنح الظلام فارا بدينه يتتبع القوم آثاره في الطرق علهم يظفرون به وينتقمون منه هل قابل صنيعهم بصنيع مثله؟ حاشا وكلا لسيد الخلق أن يقابل السيئة بمثلها، فها هو بمكة يجهز على الوثنية في عاصمتها ، اقترب منه "فضالة بن عمير" يتحين الفرصة لقتله، نظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم نظرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به لم يجد في نفسه على الرجل بل استدعاه ثم سأله، ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء ، كنت أذكر الله! فضحك النبي ثم قال: استغفر الله. وتلطف معه الرسول فوضع يده على صدره، فانصرف الرجل وهو يقول: ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحبُ إلي منه.[1] وكانت لفضالة في جاهليته هنات ، فمر وهو راجع إلى أهله بامرأة لها معه شأن، فلما رأته قالت: هلم إلى الحديث! فانبعث يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

1 سيرة ابن هشام ، 276/2.

ب/ هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الخدم

يقول سيدنا أنس رضي الله عنه :خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف قط، وما قال لي لشيء صنعته : لم صنعته ، ولا لشيء تركته : لم تركته ، وكان رسول الله من أحسن الناس خلقا، ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق النبي [1] .ما روته كتب السيرة أن سيدنا أنساً كان صغيرا في السن وهو يخدم النبي وشأنه شأن الغلمان في حبهم للعب والتلهي عن القيام ببعض ما يطلب منهم أحيانا مما يعرضهم للوم والتعنيف ممن طلب منهم الخدمة، ولكن سيدنا أنساً لم يلق من النبي إلا البشاشة وحسن المعاملة ، وهذا درس عملي لكل من له خدم أو مرؤوسون في الشغل لابد من معاملتهم بالحسنى، وتوضح لنا سيرة النبي الكريم أن التعامل مع الخدم لا يقف عند المعاملة بالحسنى بل يتعدى إلى العفو عنهم، ومسامحتهم فيما يصدر عنهم من هفوات أو تقصير في أداء أعمالهم، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم ؟ فقال : كل يوم سبعين مرة [2] .

ج/ معاملة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجيرانه من المخالفين

لقد كان النبي صلى لله عليه وسلم في كل وقت وحين لا تغيب عنه أخلاق القرآن في التعامل مع الأهل والجيران مع القريب والبعيد بل حتى مع المخالف له في العقيدة. قد كان حسن أخلاقه يدفعهم للتصديق به والدخول في الدين الحنيف ، يروي الإمام البخاري في صحيحه عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ" :كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ

1 الألباني، مختصر الشمائل، ص296
2الترمذي، سنن الترمذي، 1949.

يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: "أَسْلِمْ"، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: "الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ[1]

ويستفاد من هذا الحديث:

أ- جواز اتخاذ العامل أو الخادم غير المسلم، لفعله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك؛

ب- جواز عيادة المريض ولو لم يكن مسلما، بل هو واجب إذا كان جارا؛ لأن من حقوق الجار على جاره أن يعوده إذا مرض، وليس شرطا أن يكون الجار مسلما.

ج- أن المعاملة بالحسنى سبيل لتحبيب الإسلام للكفار، وقد كان لِين جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم سببا في تحبيب الإسلام لهذا اليهودي؛

د- يستفاد من الحديث أيضا أن وجوب تبليغ دعوة الإسلام لا تسقط بحال من الأحوال حتى ولو أشرف الكافر على الهلاك؛ لأن الهداية القلبية من لطف الله، ولا يعلم أحد من الخلق متى يلطف الله بعبد من عباده.

هـ _ إشفاق النبي على خادمه وكرهه أن يكون من أهل النار.

هذه الأخلاق التي كان يتعامل بها النبي تشربها أصحابه ووظفوها في حياتهم العملية، فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرٍ، أَنَّهُ كَانَ لَهُ جَارٌ يَهُودِيٌّ، وَكَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، قَالَ: احْمِلُوا إِلَى جَارِنَا مِنْهَا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ" **: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ.**[2]

1 محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، باب إذا أسلم الصبي هل يصلى عليه، حديث رقم1356.
2أبوبكر البيهقي، سنن البيهقي،(ط1؛ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع :الرياض،2003) شعب الإيمان، 106/12.

حري بالمسلمين اليوم أن يفقهوا ما فقهه سيدنا عبدالله بن عمر وأمثاله من الصحابة الأخيار من سيرة النبي ، وأن تُرسم علاقاتهم على مستوى الفرد والدولة وفق هذا المنهج القويم الذي يحفظ لكل إنسان حقه، إذا وصلنا إلى هذا المفهوم نكون قد أظهرنا للإسلام صورته الحقيقية التي أرادها له رب العزة، ودفعنا عنه ما يلصق به من تهم باطلة، مردها إلى جانب عداوة الأعداء جهل كثير من المسلمين بحقيقة الدين، وعدم قدرتهم على عرضه على الآخر وإظهار المعاني الإنسانية الرائعة.

النتائج والتوصيات

من خلال البحث والاطلاع على كتاب الله وما جاء به نبينا الكريم من توجيهات ربانية في تقويم النفس البشرية ، ومما كتبه المتخصصون في هذا المجال يتضح الآتي:

1. الأخلاق فطرية ومكتسبة.
2. يولد الإنسان على الفطرة السليمة والتربية والمحيط الذي يعيش فيه هو الموجه لسلوكياته وعقيدته.
3. أهمية دور الأسرة والمجتمع في تكوين الأخلاق العامة للفرد والتي بدورها تنعكس على المجتمع بأسره.
4. رقي المجتمعات مرتبط بغرس الأخلاق الفاضلة في الناشئة.

ومن خلال ما سبق يوصي الباحث بالتالي:

1. الاهتمام بأخلاق أبناء المسلمين وتوجيههم نحو اتباع ما أمر به القرآن وما جاءت به السيرة النبوية.
2. إعادة النظر في مؤسساتنا التعليمية ومناهجها التربوية ومدى ارتباطها بالمنهج النبوي الشريف.

3. العمل على إبراز الشمائل النبوية ومكارم الأخلاق في وسائل الاتصال بجميع أشكالها وأنواعها حتى تكون نبراسا يوجه أخلاقيات أبناء المجتمع الإسلامي.
4. توحيد وتكاثف جهود جميع فئات المجتمع الإسلامي من أجل بناء جيل لديه عقيدة صحيحة ويتمتع بأخلاق رفيعة.

ثبت المصادر والمراجع:

1- أبوبكر البيهقي، سنن البيهقي،(ط1 ؛ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع :الرياض،2003)

2- أبوالحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم.

3- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري "الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه".

4- أبي حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين،(ط2 ؛ دار الفجر: القاهرة، 2010)

5- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة تخريج محمد ناصر الدين الألباني تحقيق علي بن حسن عبد الحميد الحلبي (ط1، دار ابن القيم دار ابن عفان/ 1422هـ ـ 2001م)

6- تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ت : محمود محمد الطناحي - عبد الفتاح الحلو، الناشر: فيصل عيسى البابي الحلبي

7- جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الجامع الصغير من حديث البشير النذير.

8- عبد الملك بن أيوب بن هشام ، سيرة ابن هشام .

9- عفيف عبدالفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي (ط30؛ دار العلم للملايين: بيروت).

10- علاء الدين علي المتقى بن حسام الدين الهندي البرهان فوري ، كنز العمال في سنن الاقوال والأفعال.

11- علي بن أبي بكرالهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوئد.

12- عمر التومي الشيباني، فلسفة التربية الإسلامية، (ط2؛ الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس: ليبيا) .

13- عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي.

14- محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الشروق.

15- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح.

16- محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري.

17- ناصر الدين الألباني، مختصر الشمائل المحمدية للترمذي، المكتبة الوقفية.